صالِحَة يَعْقوب الماليزيَّة والتَّأثيرات الأَجنبيَّة في النَّحو العربيّ

أ.د. يوسف عبدالله الجوارنة *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٢٠/٢/٦م. تاريخ قبول البحث: ٢٠٢٠/١٢/١٤م.

ملخّص

يَدْرس هذا البحثُ قضيَّةَ تأثُّرِ النَّحوِ العربيِّ بالفكرِ اليونانيِّ في أربعةِ أعمالٍ لغويَّةٍ للباحثةِ الماليزيَّةِ صالحة يعقوب، وهي قضيّةٌ طالَما حامَ حولَها بعضُ المستشرقين، يَهْدفون منها إلى تَجْريدِ العلومِ الإسلاميّةِ، ومنها العلومُ العربيّةُ، مِنْ كلِّ أصالةٍ وإبداع؛ ذلك أنَّ هذه العلومَ نَشَأتْ في سياقِ القُرْآنِ الكريمِ، ما يَدْفعهم إلى الطَّعنِ في قُدُسيّةِ القُرْآن، وإثارةِ الجدلِ في إعْجازِه، والقولِ بإنشائه مِن قِبَلِ مُحمّدٍ –صلّى الله عليه وسلّم– وأنّه مَسْبوقٌ وجاءَ على نَمطٍ سابق.

لذلك، تَغيَّا البحثُ إبرازَ الجانبِ الخَلاّقِ من عمليّةِ التأثيرِ والتأثُّرِ فيما يَتَّصلُ بظاهرةِ "التَّمَلُّك"، التي تُتيحُ جانبًا أَوْسعَ في خصوصيّةِ اللغاتِ وعلاقاتِها ببعض، وتُخْرِجُ الباحثين والدّارسين مِن إطارِ الادِّعاءِ والاتِّهامِ إلى حيث التَّمَلُّك، ثُمَّ الإبداعُ والإنتاجُ في سياقِ كلِّ لغةٍ بِما يَتَماشى وثقافةَ أهلِها وحضارتَهم.

الكلمات الدالة: صالحة، النَّحو العربيّ، المنطق، التأثّر، التَّملُّك.

* قسم اللغة العربية، كليَّة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طيبة، المملكة العربية السعودية.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

Saliḥa Yaʿqoub Almaleeziyyah (The Malaysian) and the Foreign Impacts on Arabic Syntax

Prof. Yousuf A. Al-jawarneh

Abstract

This research studies the issue of how the Arabic Syntax was influenced by the Greek thought in four linguistics works by the Malaysian researcher Saliḥa Yaʿqoub. This issue has been targeted by some Orientalists. They aimed to tarnish the image of Islamic sciences (including Arabic sciences) of any trace of creativity and originality, only because these sciences were developed in the context of the Holy Qurʾan. They also aimed to tarnish the image of the Qurʾanic holiness and to raise skepticism in its unimitatability in order to prove that it was composed by Mohammed-peace be upon him and that it imitated previous works.

That is why this research aimed to focus on the creative side of the process of influencing and being influenced by the "possessing" phenomenon which avails a broader side in the language's specificity and its relations within its different parts, and it aids the researchers and linguists from the framework of pretence and accusation to “possessing”, then creativity and production in the context of each language which matches with the culture and civilization of its native users.

Keywords: Saliḥa, Arabic Syntax, logic, impact, possessing.

مقدّمة:

يتناول هذ البحث ظاهرة تأثّر النّحو العربيّ بالفكر اليونانيّ في بعض الأعمال العلميَّة اللغويَّة للباحثة الماليزيّة الدُّكتورة صالحة حاج يعقوب، أستاذة اللغة وفلسفة النَّحو العربيّ بالجامعة الإسلاميَّة العالميَّة بماليزية، الجامعةِ التي تَخرّجت فيها بمراحلها الثلاث العلميَّة.

ومنذ أنْ انتهت من إعداد أطروحتها العلميَّة "نظريَّة العَمَل في النَّحو العربيّ: دراسة تحليليَّة ونقديَّة" في مرحلة الدّكتوراه عام ٢٠٠٥م، ولم يتسنَّ لي الاطّلاع عليها، مع حاجةِ البحث الماسَّةِ إليها فيما يتّصل بنظريَّة النَّظم؛ إذْ جعلت المبحث الأوَّل من الفصل الخامس خاصًّا بها، ووَسَمَتْه بـ "شمول النَّظم عند الجُرْجانيّ"، فضلاً عن أنَّ نظريَّة العامل التي تناولتها، جعلتها دليلاً مباشرًا على عدم تأثُّر النَّحو العربيّ بأيّ نحوٍ أجنبيّ، لأنّها نظريَّة لم توجد في لغات أخرى غير العربيَّة– منذ ذلك الوقت نَشِطت صالِحة باحثةً في اللغة العربيَّة، ونشرت دراساتٍ متنوّعةً في علومها اللغويَّة، وفلسفة النَّحو العربيّ، منها: "نظرات النّحويّين في الإعراب والعوامل"، و"الاحتجاج اللغوي لدى القدماء والمحدثين: دراسة نقديَّة في ضوء المعاصرة"، و"الكوفيّون والبصريّون: المنهج المتبادل في قضايا القياس والسّماع: دراسة قرآنيَّة تحليليَّة"، و"المقام والقرينة الحاليَّة ودورهما في المعنى" الوثيق الصلة ببحث النَّظرات، أو هو خارج من رحمه وصورة عنه، و"المنطق الفقهي وعلاقته بالدّلالة النَّحويَّة"، و"أوهام نظريّة رفض الاحتجاج بالأحاديث النبويَّة بقبول القراءات الشّاذّة والشّعر المجهول في الاحتجاج اللغويّ"، و"موقف النّحاة من الأحاديث النبويَّة في استنباط القواعد النحويَّة"، و"دلالات أسماء الفاعلين في رياض الصّالحين".

أمّا الأبحاث العلميّة التي تَناوَلَتْها صالحة ويناقشها هذا البحث، فهي: "موقف النّحاة من فلسفة النّحو العربيّ"، و"صفاء النّحو العربيّ من التأثيرات الأجنبيّة"، و"موقف المستشرقين من اللغة العربيّة: جولدتسيهر نموذجًا"، و"النُّقوش النبطيَّة وعلاقتها بقواعد النَّحو العربيّ".

وحاولت صالحةُ في هذه الأبحاث أَنْ تَكْشف اللثام عن قضيّة تَأثُّرِ اللغة العربيّة بشكل عام، والنّحوِ العربيّ بشكل خاصّ، بالفكر اليوناني نحوًا ومنطقًا وفلسفة، وهي قضيّة طالما حام حولها المستشرقون، يهدفون بها –إلاّ قليلاً منهم– إلى تجريد العلوم الإسلاميّة، ومنها العربيّة، من كلّ أصالة وإبداع وإتقان.

وتأتي أهميَّةُ هذا البحثِ –الذي اتَّبعتُ فيه منهجًا يزاوج بين الوصف للظاهرة ومناقشة الآراء وتحليلها في سياقها الخاص بها– في أنّه تغيًّا أنْ يُبرز الجانب الخلاّق من عمليّة التأثير والتأثّر فيما يتّصل بظاهرة "التملّك"، التي تتيح جانبًا أوسع في خصوصيّة اللغات وعلاقاتها ببعض، وتُخْرج

الباحثين والدّارسين من إطار الادّعاء والاتّهام إلى حيث التَّملّك، ثمّ الإبداع والإنتاج في سياق كل لغةٍ بما يتماشى وثقافةَ أهلها وحضارتَهم؛ ذلك أنَّه إذا كانت العلوم عند العرب قد نشأت في سياق القرآن الكريم والسنّة النبويّة، فإنّ ديدن بعض المستشرقين وحرصَهم على الخوض في قضيَّة تأثّر العلوم العربيّة بغيرها من غير كَلَل ولا مَلَل، يرجع في ظنّي –فضلاً عن التَّجريد المشار إليه– إلى الطَّعن في قدسيّة القرآن، وإثارةِ الجدل في إعجازه، والقول بإنشائه من قبل محمّد –صلّى الله عليه وسلّم–، وذلك يُفْضي إلى القول: إنّه مسبوقٌ، وجاءَ على نَمَط سابق.

وقد اشتمل هذا البحث على ستّ مسائل بين المقدّمة والخاتمة؛ تناولتُ فيها طروحاتِ الباحثةِ في مُدوّناتِها من حيثُ الأصالةُ والتأثير، وهي: انطلاقة أبي الأسود في نشأة النّحو، ونظرة المستشرق جولدتسيهر نموذجًا، وما يدلّ على أصالة النّحو العربيّ، ووقوع التأثّر، ونظريَّة النَّظم نموذجًا، وظاهرة التَّملُّك في سياق الأصالة والتأثّر. وعرضت في الخاتمة لأهمّ النتائج التي توصّلت إليها. وفيما يأتي تفصيل لهذه المسائل.

أولًا: انطلاقة أبي الأسود الدّؤليّ

انطلقت صالِحةُ في إثبات أصالة علوم العربيَّة وعدم تأثُّرها –في بداياتها الأولى– بالفكر اليونانيّ والفلسفة اليونانيَّة، من فرضيَّة بَدْءِ نشأة النَّحو العربيّ على يد أبي الأسود الدُّؤلي (ت٦٩هـ/ ٦٨٨م) بأَمرٍ من الإمام عَلِيّ (ت٤٠هـ/ ٦٥٧م)، وذلك عندها أصحُّ الأقوال بصرف النَّظر عن الأقوال الأخرى في هذه النَّشأة[١].

وإذا كان يُقبل القول: إنَّ انطلاقة النّحو بدأت بأبي الأسود من غير تعاريف ولا تقاسيم، وكان "أوَّلَ من أَسَّس العربيَّة، وفَتَحَ بابها، وأَنْهَجَ سبيلها، وَوَضَع قياسها"[٢] على حدّ ابن سلام الجُمحيّ (ت٢٣١هـ/ ٨٤٥م)، وذلك في ضَبْطه الشَّهير "نَقْط الإعراب"، المُجْمع على نسبته إليه، إذْ

(١) انظر: يعقوب، صالحة: "صفاء النَّحو العربيّ من التأثيرات الأجنبيَّة"، **مجلة مجمع اللغة العربيّة الأردنيّ**، س٢٥، ع٨١، ٢٠١١م، ص١٨، و"موقف المستشرقين من اللغة العربيّة: جولدتسيهر نموذجًا"، **المجلّة العربيّة للعلوم الإنسانيّة**، الكويت، مج٣٣، ع١٢٩، ٢٠١٥م، ص٢٠، و"النُّقوش النبطيَّة وعلاقتها بقواعد النَّحو العربيّ: دراسة وصفيَّة"، **مجلَّة الدّراسات اللغويّة والأدبيَّة**، الجامعة الإسلاميَّة العالميَّة بماليزية، س٦، ع١، ٢٠١٥م، ص٧٥، ٧٦، وانظر في الأقوال الأخرى: الجوارنة، يوسف: **سعيد الأفغاني وجهوده في علم العربيَّة**، ط١، مؤسّسة حمادة للدّراسات الجامعيَّة والنشر، إربد الأردن، ٢٠٠٨م، ص٨٧ وما بعدها.

(٢) الجمحي، محمد بن سلام (٢٣١هـ/ ٨٤٥م): **طبقات فحول الشُّعراء**، قرأه وشرحه محمود محمّد شاكر، دار المدني بجدَّة، (د.ت)، ١/ ١٢.

قال لكاتبه: "إذا رَأَيْتَني قد فتحتُ فمي بالحرف فانقط نُقْطة فوقه على أعلاه، فإنْ ضممتُ فمي فانقط نُقْطة بين يدي الحرف، وإنْ كسرتُ فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبعتُ شيئًا من ذلك غُنَّةً (تنوينًا) فاجعل مكان النُّقْطة نقطتين"(١)- فإذا كان ذلك، فإنَّ القول بنسبة الأوَّليّة على ما ترى صالحة؛ أي: أوَّليَّة وَضْع النَّحو للإمام عَلِيّ- لا يستقيم بحال؛ لخصوصيَّة المرحلة التي مرَّ بها رضي الله عنه، وهي مرحلة حَرِجة تنأى به أنْ ينشغل بتأسيس العلوم فضلاً عن تَفْريعها.

وقد جعل الأستاذ أحمد أمين نسبة وضع النَّحو إليه من بابة التشيّع(٢)، وهي بابةٌ متراحبة سعى فيها الشّيعة وأعيانُهم أنْ يجعلوا كلَّ ذي بالٍ منسوبًا إلى الإمام عليّ وأتباعه؛ فقد نُقِلَ عن أحد أعيان الشّيعة قوله: "إنَّ أوَّل من وَضَع النَّحو أبو الأسود أستاذ الحسن والحسين، فقيل: أخذ النَّحو عن عليّ عليه السّلام"(٣)، بيد أنَّ أبا الفرج الأصفهانيّ (ت٣٥٦هـ/ ٩٦٦م) المتشيّع قد أنكرها، ونَصَّ على أنَّ أبا الأسود هو الأصلُ في بناء النَّحو وعَقْدِ أصوله(٤)، ومثله جعل المستشرق اليهوديّ المجريّ اجْنَتْس جولدتسيهر (I. Goldziher) في دراسةٍ نقديَّةٍ -له- لأعمال أبي الأسود، جعل أبا الأسود مؤسّسًا للنحو، ونفى ذلك عن الإمام عليّ، الذي ما انفكّ جولدتسيهر نفسه يُقرّ بوجود علاقة أو تبادل حَصَل بينه وبين يوحنّا الدّمشقيّ (ت١٣١هـ/ ٧٤٨م)(٥)، المولود بعد وفاة الإمام بخمس عشرة سنة تقريبًا، وذي النَّزعة الأرسطيَّة التي يؤمن بها جولدتسيهر نفسه.

وإنَّ صنيع أبي الأسود في ضَبْط القرآن، يكاد يكون "أعظم خدمة قُدّمت للعربيَّة حتى الآن"(٦)، بل إنّه الانطلاقة الحقيقيّة لكلّ نشاط لغويّ، وهي سبيلٌ تُشَكّل -في يقيني- ارتكازًا؛ ارتكز عليها كلُّ مَنْ خَلَفَه من تلاميذه؛ فقيل في عبد الرَّحمن بن هرمز (ت١١٧هـ/ ٧٢٥م): إنَّه أوَّل من وَضَع علم

(١) السيرافيّ، أبو سعيد الحسن بن عبدالله (٣٦٨هـ/ ٩٧٨م): **أخبار النَّحويين البصريين**، تحقيق محمّد إبراهيم البنّا، ط١، دار الاعتصام بالقاهرة، ١٩٨٥م، ص٣٥.

(٢) انظر: أمين، أحمد (١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م): **ضحى الإسلام**، ط١٠، دار الكتاب العربيّ، بيروت، (د.ت)، ٢/ ٢٨٥.

(٣) الصّدر، السيّد حسن (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م): **تأسيس الشّيعة لعلوم الإسلام**، دار الكتب العراقيّة، الكاظميَّة، ١٩٥١م، ص٤٨.

(٤) انظر: الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (٣٥٦هـ/ ٩٦٦م): **الأغاني**، تحقيق إحسان عباس وزميليه، ط٣، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٨م، ١٢/ ٢١٥.

(٥) انظر: "جولدتسيهر نموذجًا"، ص١٢، ١٤.

(٦) الأفغاني، سعيد (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م): **من تاريخ النّحو**، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م، ص٢٨.

العربيَّة... بالمدينة، أي: أوَّل من أظهره وتكلَّم به في المدينة[١]– وتلاميذِ تلاميذِه؛ فقيل في عبدالله بن أبي إسحاق الحضرميّ (ت١١٧هـ/ ٧٢٥م): إنَّه أوَّل مَن بَعَج النَّحو، ومَدَّ القياس، وشَرَحَ العلل[٢]؛ أي: وسَّع النَّحو وبيَّن علله، ووسَّع أصول قياس العربيّة وأحكامها.

لذلك خَلَطت صالِحةُ أوراقها وهي تتحدَّث عن القياس عند الحضرميّ، فقالت عنه: "يبدو أنّه الواضع الأوَّل لعلم النَّحو"[٣]، أو أنّها لم تخرج عن عبارة ابن سلام كغيرها من الباحثين، وثمّة فرق بين العبارتين. ثمّ رأت في سياق حديثها عن تلامذة الدُّوليّ، أنَّ عمليَّة وضع القواعد النحويَّة انتشرت بأيدي أوائل القرّاء من تلاميذه[٤]، وهم: نصر بن عاصم (ت٨٩هـ/ ٧٠٧م)، وابن هرمز، وابن يعمر (ت١٢٩هـ/ ٧٤٦م)، وعنبسة، وميمون، وهذا ليس بدقيق، لأنّ تلامذته نقلوا عن أبي الأسود نقطَ الإعراب –ثمّ من بعدُ نقطَ الإعجام– إلى مَن يلونهم. وفِعْلُهم هذا لا يقلّ أهميّة عن فِعْل شيخهم، وذلك جَعَل بعضَ القدماء "يظنّ أنَّهم وضعوا قواعد الإعراب أو أطرافًا منها، وهم إنَّما رسموا في دقَّة نَقْطَ الإعراب لا قواعده، كما رسموا نَقْط الحروف المعجمة"[٥].

وعليه، فإذا كانت الانطلاقة إنّما بدأها أبو الأسود، وقد أشارت صالحة إلى شيء من هذا بقولها: "إنَّ نظام النحو في زمن أبي الأسود لم يتمَّ فيه مناقشة العامل نفسه، فهو لم يكن مألوفًا على الرغم من وجوده في كلام العرب"[٦]– إذا كان ذلك كذلك، فإنَّ ابن أبي إسحاق يبدأ به التأريخ العلميّ للنَّحو، ثمّ بمن جاء بعده من النَّحويين، ومنهم عيسى بن عمر (ت١٤٩هـ/ ٧٦٦م)، وأبو عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ/ ٧٧١م) وغيرهما، لأنَّ هؤلاء يشكّلون طبقة "قامت الدَّلائل على أنَّ رجالها كانوا يتناولون

(١) انظر: القفطيّ، أبو الحسن علي بن يوسف (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م): **إنباه الرُّواة على أنباه النُّحاة**، تحقيق محمّد أبو الفضل، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦م، ٢/ ١٧٢.

(٢) انظر: طبقات فحول الشّعراء، ١/ ١٤، والزّبيديّ، أبو بكر محمد بن الحسن (٣٧٩هـ/ ٩٨٩م): **طبقات النَّحويين واللغويين**، تحقيق محمّد أبو الفضل، ط٢، دار المعارف بمصر، ١٩٨٤م، ص٣١.

(٣) "صفاء النَّحو العربيّ"، ص٢٥.

(٤) "صفاء النَّحو العربيّ"، ص١٨، و"جولدتسيهر نموذجًا"، ص١٨، و"النُّقوش النبطيَّة"، ص٨٦.

(٥) ضيف، محمد شوقي (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م): **المدارس النحويَّة**، ط٧، دار المعارف بمصر، (د.ت)، ص١٧.

(٦) "النُّقوش النبطيَّة"، ص٧٧.

بالدّرس مسائلَ نحويّة، وإنْ كان نَحْوُهم لا يَنْتظمُ أبوابَ النّحو ومسائلَه"[١]، حتى استقرّ وانتظم وتَطَوّر بعد الخليل (ت١٧٥هـ/ ٧٩١م) في كتاب سيبويه (ت١٨٠هـ/ ٧٩٦م).

ونَحْوُ هذه الطَّبقةِ والطَّبقةِ التي تليها، إلى سيبويه وتلامذته، نَحْوٌ عربيّ خالص؛ لا تَشوبُه شائبة من شوائب التأثُّر، وهو هدفٌ سَعَت إلى تحقيقه صالِحةُ، اعتقادًا منها أنَّ النَّحو ارتبط في نشأته بالقرآن الكريم، وأنَّ هذه النَّشأة قام بها أوائل القُرّاء لا غيرهم.

ثانيًا: جولدتسيهر نموذجًا

تُعيد صالِحةُ اهتمامَ المستشرقين إطلاقَ دعوى تأثير الفكر اليونانيّ في النّحو العربيّ إلى عاملين اثنين[٢]: أوّلهما اعتمادُهم على نظريَّة العقل لا النَّقل، وثانيهما: تَشْكيكُهم في ظهور كتاب سيبويه بصورة مفاجئة على حَدِّهم، وذلك يعني أنَّ النَّحو العربيَّ وُلد ناضجًا، وأنَّه لا يكون كذلك إلاّ إذا نُقِل من نَحْو لغة أخرى، على حدِّ الدكتور أحمد مختار عمر[٣].

ويبدو أنَّ هذين العاملين دندن ويدندن حولهما المستشرقون؛ ذلك أنَّهم يعيدون كلَّ ما يَصْدر عن العرب من علوم إلى مصادرَ أخرى سابقةٍ عليهم، اعتقادًا منهم أنَّ الحضارة الإسلاميَّة ليس بمقدورها أنْ تُبدع على غير نَسَقٍ سابق، يُحاكيه علماؤها ويَصوغون علومهم على طرازه.

ولعلّ المستشرق الفرنسيّ إرنست رينان (E. Renan) واحد من ثلّة منهم، كان يدور في فلك تجريد العرب والمسلمين من الإبداع والاستقلال الفكري في صياغة العلوم فضلاً عن تأسيسها، لأنَّهم يَحْملون ملامح القصور التي اتَّسمت بها العقليَّة السّاميَّة[٤].

غير أنَّ صالِحةَ وهي تَعْرض لموقف المستشرق جولدتسيهر من اللغة العربيَّة، نَقَلت عنه في كتابه (History of Grammar among the Arabs)، أنَّ رينانَ افترض أنَّ القرآنَ نقطةٌ محوريَّة،

(١) المخزومي، مهدي (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م): **الفراهيديّ عبقري من البصرة**، ط٢، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٩م، ص٧٥، وانظر: المهيريّ، عبد القادر (١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م): **نظرات في التراث اللغوي العربي**، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م، ص٩٠.

(٢) "صفاء النَّحو العربيّ"، ص٢٠.

(٣) انظر: عمر، أحمد مختار (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م): **البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضيّة التأثير والتأثر**، ط٦، القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨٨م، ص٣٥٤.

(٤) انظر: عمايرة، إسماعيل (١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م): **المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغويّة**، ط٢، عمَّان: دار حنين، ١٩٩٢م، ص٣٨، والبحث اللغوي عند العرب، ص٣٥٤، والنّشار، علي سامي (١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م): **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، ط٩، دار المعارف بمصر، ١٩٨٠م، ١/ ٤٩، ٥٠.

وأساسٌ لكلِّ دراسة مهتمَّة بقواعد اللغة العربيَّة الفصيحة والنَّحو، وأنَّه أَلْهَمَ أعمالَ أوائل النّحاة العرب؛ وذلك يعني استقلال النّحو عن ارتباطه بأيّ عامل أجنبيّ مؤثر؛ قال: "فيما يتعلَّق بالعلوم الأخرى، فإنَّ العرب أنفسهم يعترفون بما يدينون للإغريق به، فهم مقتنعون بأنَّ قواعد اللغة امتيازٌ حفظه الربُّ لهم، ومن العلامات الموكّدة على التفوُّق على بقيَّة الأمم كما يعتقدون"(١).

أثار كلام رينان هذا حفيظة جولدتسيهر الذي يرى أنَّ النَّحو العربيَّ لم يتأثَّر بالنَّحو الإغريقي فقط، بل تأثَّر بطريقة التفكير الإغريقيّ عن طريق السُّريانيّة؛ اللغة المحكيَّة في المناطق المحصورة بين بلاد العرب وأوروبَّة، ويرى أنَّ عبقريّةَ قواعدِ اللغة العربيَّة الخارقة التي تَسْتخدم نَظَرياتٍ، هي مبنيَّةٌ على المنطق الأرسطي، وأنَّ اليونانيَّة أَثَّرت في العربيَّة بشكل فَعّال، وأنَّ الاختلافات في التَّقسيم الثلاثي لم تنشأ في الحجاز، إشارة منه إلى نشوئها في العراق، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين جعل مدرسة البصرة تمثّل القياس، وأنَّ مدرسة الكوفة تقاصرت عنها في هذا الأصل وتمثّل الحالاتِ الفرديَّة في النَّحو(٢).

والذي فات صالِحةَ، هو أنَّ رينان من أوائل من قال بتأثُّر النَّحو العربيّ بالنَّحو اليونانيّ عن طريق السُّريان؛ إذْ تناول في كتابه "تاريخ اللغات السّاميَّة" علاقة النّحو العربيّ بمنطق أرسطو(٣)، وما قام به جولدتسيهر هو أنَّه استرجع كلام رينان؛ فما العلوم التي يَدين بها العرب للإغريق غير علوم العربيَّة القائمة على فهم القرآن ومن وحي القرآن؟ ثم كيف تكون امتيازًا حفظها الربُّ لهم، ومن العلامات المؤكّدة على تفوّقهم على بقيَّة الأمم، وهم يَدينون بها للإغريق؟

والدَّليل على زَيْف ما يقوله رينان هو أنَّه يَصف فِعْل العرب في نَقْله بقوله: "فهم مُقْتنعون"، و"كما يَعْتقدون"؛ بمعنى: أنَّ ما تَقْتنعون به وتَعْتقدونه، إنَّما هو باطل لا يَرْقى إلى منجزاتِ يونان.

ويبدو أنَّ اهتمام صالِحةَ بجولدتسيهر وسعيَها إلى دَحْض مزاعمه القائمة على الخلط والتَّشويه والبُعد عن الموضوعيَّة والحياديّة صَرَفَها عن رينان، وظنّت أنَّه يغاير في آرائه جولدتسيهر فأثاره وانتقده، وهما –في الحقيقة– إنّما يَصْدران مِن مِشْكاة واحدة، وما ذهبت إليه في قولها: "لم يكن رينان اللغويَّ الوحيد الذي أيّد أصالة النّحو العربيّ ومبادئه"(٤)، يحتاج إلى مزيد بحث.

(١) "جولدتسيهر نموذجًا"، ص١٣.

(٢) انظر المصدر نفسه، ص١٢، ١٣، ١٥، ١٧، ٢٢، ٣١.

(٣) انظر: المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغويّة، ص٣٨، والعقيقي، نجيب (١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م): **المستشرقون**، ط٣، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م، ١/ ٢٠٢م.

(٤) انظر: "جولدتسيهر نموذجًا"، ص١٥.

وكان جولدتسيهر يرمي في مزاعمه التي بثَّها في كتبه، إلى عَزْل العرب والمسلمين في قدرتهم على إنتاج علوم، وأن يكون لهم نهضة نحويَّة –إنْ صح التعبير– من غير مثال سابق، اعتقادًا منه أنَّ العالم العربيَّ لم يكن قادرًا على إبداعٍ فكريّ فعليّ.

وأشارت صالِحةُ في رَدِّها آراءَ جولدتسيهر إلى أنَّ العربَ في بدايات تأسيس النَّحو كانوا معزولين بشكل تام عن مراكز الحضارة الرئيسيَّة –مع ما يصاحب هذا الاستنتاج من حَذَر– وأنَّ زَعْمَه الانتقالَ الصّامت لقواعد لغة أجنبيَّة، واندماجَها في قواعد اللغة العربيَّة زَعْمٌ مَغْلوط، ولو كان حَصَل شيءٌ من هذا القبيل لَذَكَره علماء النَّحو المسلمون، وإنَّ عدم ذِكْرهم إيّاه –وهم أمَّة تَقوم على الإسناد– فذلك يعني أنَّه غير موجود حقيقة على حدّ قولها(١).

ومع أنّها حاولت الردّ على جولدتسيهر في سياق حديثه عن المدرستين البصرة والكوفة، وأشارت إلى أنّ البصرة تميل إلى الفلسفة في صياغتها لنظام القواعد، وأنَّ الكوفة بَنَت قواعدها على آيات من الذّكر الحكيم مع حفظ النّصوص القديمة، وأطالت في الإجابة عن سؤالها: إلى أيِّ مدىً ذهبت البصرة في قبولها القياس؟(٢)، واستعانت بغير واحد من الباحثين الذين درسوا البصرة والكوفة، أو تناولوهما في دراساتهم، لإبطال مزاعم جولدتسيهر– فيبدو أنَّه غاب عنها هدفه في التقليل من شأن الكوفة في دراسة النَّحو، وذلك له دلالة مقصودة عنده، وهو أنَّ تأثُّر العربيَّة بغيرها من اللغات إنّما كان عن طريق البصرة لا الكوفة.

وإنَّ الحديث عن المدرستين ومنهجهما في دراسة النّحو ذو شجون، وإنَّ البصرة أسبق من الكوفة، والكوفيّون راحوا يسابقون الزّمن لِلّحاق بالبصريين، دَفَعهم قربُهم من مراكز الدَّولة في بغداد إلى تحقيق هدفهم؛ فإذا كانوا أكثر قياسًا من حيث الكمّ، لأنّهم يقيسون على القليل والكثير والنّادر والشّاذ، فإنَّ البصريين هم أقيسُ من حيث الكيف، لأنّهم يقيسون على الأعمّ الأغلب(٣). وعليه، فإنّه يمكن القول: لو أنّ الكوفيين "احترزوا في النَّقل عن الأَعْراب، ولم يَخْلطوا الفصيح بالهجين حين توسَّعوا في السَّماع، لخدموا النَّحو خدمة جليلة كسروا بها ما كان ضيَّقه البصريّون وحجَّروه"(٤).

(١) انظر: المصدر نفسه، ص١٥، ١٩.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٩، ٢٢.

(٣) انظر: من تاريخ النّحو، ص٧٣.

(٤) سعيد الأفغاني وجهوده في علم العربيَّة، ص١٠٣.

وأشارت صالِحة إلى أنَّ ابتكار الحركاتِ القصيرة عربيّ خالصٌ، مستدلَّة بطريقة أبي الأسود الدّؤليّ مع كاتبه، ردًّا منها على زَعْم جولدتسيهر بأنَّها مأخوذة عن الحركات في اللغة السّريانيَّة، في إشارة منه إلى أنَّ العربَ لم يُطوّروا المبادئ الأساسيّة للقواعد من وَحْي إبداعهم(١). لكنّ صالِحة افترضت في موضع آخر أنَّ أجزاء النَّحو المتمثّلةَ بالحركات؛ الكسرةِ والضَّمّةِ والفتحة، يمكن أنْ تكون أُخِذت من لغات قديمة، منها السّريانيّة والعبريّة والفارسيّة والسّنسكريتيّة، لتقرّر أنَّ النظام الجزئيّ لقواعد اللغة العربيّة صادر عن العرب أنفسهم(٢).

وكان يكفي صالِحة أن تشير إلى السّريانيّة حسب من دون اللغات الأخرى، لأنّها الوحيدة التي يشار إليها من بينها، وإنَّ ما ذهب إليه جولدتسيهر من تأثّر أبي الأسود في نَقْطه بالسّريان، قد أعاده المستشرق الإيطاليّ أغناطيوس جويدي (A. Guidi)، فرأى أنَّ انطلاقة أبي الأسود في النَّقط تُشْبه نقط السّريان حفاظًا على كتابهم المقدّس(٣)، وانتصر لهذا الرأي الدكتور حسن عون، وأخذ به ودَلَّل عليه(٤).

ثالثًا: ما يدلّ على أصالة النَّحو

عرضت صالِحة في دراساتها المتعلّقة بعلاقة العربيَّة بغيرها من اللغات مجموعةً من الأمور، رأت أنّها تصبّ في أصالة النَّحو، بل وتدلّ عليها، ومن هذه الأدلَّة:

١. التَّرجمة:

شكّلت عمليَّة نقل العلوم والمعارف (الترجمة) مَعْلمًا بارزًا من معالم التواصل بين الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة وغيرها من الحضارات الأخرى، وكانت علامة من علامات إبداع العرب والمسلمين في امتلاكِ هذه المعارف وصَهْرِها في سياق حضارتهم الناهضة.

وعدَّ بعض المستشرقين هذه العمليَّة في الدّراسات اللغويَّة العربيَّة صورة من صور تأثُّر هذه الدّراسات في نشأتها بالفكر اليوناني بشكل عام، وقد رأت صالِحةُ أنَّ دعوى تأثّر النَّحو العربيّ بالفكر اليونانيّ عن طريق ترجمة الكتب اليونانيَّة إلى العربيَّة، دعوى يَحفُّها الشَّك والرّيب، وذلك لأنَّ عصر التَّرجمة تأخَّر قليلاً بعد وضع النَّحو العربيّ، بل عَدَّت الترجمة –بناءً على ذلك– مؤشّرًا من مؤشّرات

(١) انظر: "جولدتسيهر نموذجًا"، ص١٣، ١٤، ١٧.

(٢) انظر: "النُّقوش النبطيَّة"، ص٧٧.

(٣) انظر: زغلول، الشّحات: **السّريان والحضارة الإسلاميّة**، الهيأة المصريّة العامة للكتاب، ١٩٧٥م، ص١٢٤.

(٤) انظر: عون، حسن، **اللغة والنّحو**، ط١، مطبعة رويال، الإسكندريّة، ١٩٥٢م، ص٢٤٨.

أصالة النّحو[١]، دونما إيضاح مفصّل منها لحيثيّات عمليَّة التّرجمة والشّبهات التي تُثار حولها في سياق الحديث عن نشأة النَّحو العربيّ والدراسات اللغويَّة.

ويبدو أنَّ دعوى التأثّر عن طريق الترجمة مَرَدُّها إلى أنَّ ابن المقفَّع (ت١٤٢هـ/ ٧٥٩م) هو مَن قام بترجمة منطق أرسطو، وقد بيّن المستعرب اليهوديّ بول كراوس (P. Kraus)، أنَّ محمّد بن عبدالله بن المقفَّع هو صاحب التَّرجمة[٢]، ما دعا المستشرق الألمانيّ إنّو لتمان (E. Littmann) إلى قوله عن العرب: "ابتدعوا علم النّحو في الابتداء، وأنّه لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تَقَدّموه"، وقال في السّياق ذاته: "إنّه –أي: علم النَّحو– نَبَت عند العرب كما تَنْبت الشّجرة في أَرْضها"[٣]، وقال المستشرق الفرنسي جيرار تروبو(G. Troupeau): "أعتقد أنَّ علم النَّحو أعربُ العلوم الإسلاميَّة، وأبعدُها عن التأثير الأجنبيّ في طوره الأوّل"[٤]. لذلك، كثرت مزاعم المستشرقين في أنَّ التأثُّر كان من طريق غير مباشرة، طريق السُّريان.

ويبدو أنَّ أبا سعيد السّيرافي (ت٣٦٨هـ/ ٩٧٩م) في مناظرته مَتَّى بن يونس (ت٣٢٨هـ/ ٩٣٩م) الذي ادَّعى معرفة علوم اليونان من طريق التَّرجمة، التي رآها "حفظت الأغراض، وأدَّت المعاني، وأخلصت الحقائق"، كان يعي تمامًا قُصور التَّرجمة في نَقْل العلوم بصورتها المُثلى إلى لغة أخرى، مهما أوتي حُذاقها المتقنون من مهارة واقتدار، قال: "وإذا سلَّمنا أنَّ التّرجمة صَدَقتْ وما كَذَبت، وقوَّمت وما حَرَّفت، ووزّنت وما جَزَّفت، وأنَّها ما الْتاثَتْ ولا حافَتْ، ولا نَقَصت ولا زادت، ولا قَدَّمت ولا أَخَّرت، ولا أَخَلَّت بمعنى الخاصّ والعام، ولا بأخصّ الخاصّ ولا بأعمّ العام؛ وإنْ كان هذا لا يكون، وليس في طبائع اللغات، ولا مقادير المعاني"[٥].

وإنَّ المدقّق في كلام السّيرافي يلحظ أنّه كان على بصيرة بالحالة الفكريّة السّائدة في عصره، بل بحالة المترجمين أنفسهم، فهل كان النَّقَلَة المترجمون على معرفة –ولو جزئيَّة– بالعلوم التي ينقلونها إلى العربيّة؟ وهل كانوا على وعْي –ولو يسير– بالعربيَّة وأساليبها، حتَّى يكون المنقول صورةً تُماثل

(١) انظر: "صفاء النَّحو العربيّ"، ص١٩، ٢٠، و"جولدتسيهر نموذجًا"، ص١٥، و"النُّقوش النبطيَّة"، ص٨٥.

(٢) انظر: الفراهيديّ عبقري من البصرة، ص٨٨، وعبدالرّحمن بدوي (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، **موسوعة المستشرقين**، ط٣، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٣م، ص٤٦٤.

(٣) نقلاً عن: ضحى الإسلام، ٢/ ٢٩٢، ٢٩٣، وانظر: موسوعة المستشرقين، ص٥١٢.

(٤) تروبو، جيرار: "نشأة النّحو العربيّ في ضوء كتاب سيبويه"، **مجلّة مجمع اللغة العربيّة الأردني**، ع١، ١٩٧٨م، ص١٣٨.

(٥) انظر: التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد (٤١٤هـ/ ١٠٢٣م)، **المقابسات**، تحقيق حسن السّندوبي، ط٢، دار سعاد الصّباح، الكويت، ١٩٩٢م، ص٧٢.

النصَّ الأصليّ؟ والذي دفع إلى هذه التساؤلات أنَّ مترجماتِ أرسطو قَلِقَ من عبارتِها أبو الوليد محمّد بنُ رُشد (ت٥٩٥هـ/ ١١٩٨م) نفسُه، ووجد فيها غموضًا، وطُلبَ منه أنْ يَفُكّ قَلَقَها ويُزيل غموضَها، وهو مَنْ هو في المنطق والفلسفة؟!

وقد تصدّى الدكتور طه عبد الرَّحمن لهذه المسألة المنهجيَّة في حركيَّة التَّرجمة إلى العربيَّة في الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، وهو يَدْرسُ لغةَ ابنِ رُشد من خلال عَرْضه للمقولات الأرسطيَّة، ورأى أنَّ هناك أربعة عوامل لها أثر في تقويم أعمال التَّرجمة العربيَّة، هي:

- "التَّرجمة الحرفيَّة" وما يصاحبها من جناية المعنى وَوَأْدِه.
- و"النَّقصُ في امتلاك ناصية العربيَّة".
- و"الضَّعف في التّكوين الفلسفي".
- و"قوَّة المُعتقد غير الإسلامي".

ويَقْصد بالأخير منها أنَّ النَّقَلَة كانوا نصارى، ليس لهم احتكاك مباشر بالنَّص القرآنيّ، لأنَّ هذا الاحتكاك "هو الذي سيعمل على تكوينِ (اللغات الاصطلاحيَّة) العربيَّة، أو (اللغيّات) التقنيَّة العربيَّة، وتسديدِ أساليبها وَفْق المقتضيات البيانيَّة للتعبير العربيّ السليم"(١).

وبناءً على ما تقدَّم، من أنَّ التَّرجمةَ لا يمكنُ بحالٍ أنْ تكونَ دليلًا على التأثّر والتّأثير، بل هي دليلٌ على أصالةِ النّحو خالصًا من شوائبهما، فإنَ صالِحة أخفقتْ في الإجابة عن أسئلةِ "التَّرجمة" وهي تأخذ منه دليلًا على أصالة النَّحو العربيّ في نشأته. و"التَّرجمة" ما زال المنظّرون في الدَّرس اللسانيّ العربيّ الحديث يَعدّونها من إشكاليّات إعاقته، ذلك أنّ اللسانيّات –عِلْمًا– نَشَأ في الغرب وتطوّر بسرعة متناهية، ما يُحْوج علماءَ العربيّةِ إلى مُتابعته ونَقْله.

٢. القياس النَّحويّ

إذا كان المُحْدثون جعلوا عوامل عدّة تصل النّحو العربيّ بمنطق أرسطو، منها: القياس، والتعليل، واستخدام المقولات، والتقسيم الثلاثي، وغيرها، فإنَّ صالِحةَ نظرت إلى القياس على أنّه من الأدلَّة القويَّة على عدم تأثُّر النَّحو العربيّ بمؤثّرات أجنبيَّة(٢).

(١) عبد الرّحمن، طه: **اللسان والميزان أو التَّكوثر العقلي**، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– بيروت، ٢٠٠٦م، ص٣٢٨.

(٢) انظر: "صفاء النَّحو العربيّ"، ص٢٥–٢٧، و "جولدتسيهر نموذجًا"، ص١٥، ١٨.

ويَكاد يُجْمع الباحثون على أنَّ ابن أبي إسحاق الحضرميّ هو أوَّل من بدأ القياس النَّحويّ، ويُمثّل مرحلة القياس الاستقرائيّ، فكان لذلك "أوَّل من بَعَجَ النَّحو، ومدَّ القياس والعلل"، وقام منهجُه فيها على "تَحْديد الظواهر اللغويّة المطّردة، وجَعْلِها مقاييس لا تَصحّ مخالفتُها ولا الخروجُ عليها، ووقف بالمرصاد لكلّ من ينحرف عنها"[١]، وضربت صالِحةُ أمثلة من قياس الحضرميّ الذي غَدَت طريقته فيه مهادًا لكلّ من جاء بعده من النَّحويين، منهم تلميذه عيسى بن عمر، وأبو عمرو، حتى آل الأمر بين يَدَيِ الخليل وتلميذه سيبويه، فأظهرا القياس، ووضعا رسومه ومناهجه[٢]، بل إنَّ الخليل وَصَفه ابن جنّي (ت٣٩٢هـ/ ١٠٠١م) بأنّه "كاشف قناع القياس في علمه"[٣]، بل هو "المؤثّل الحقيقيّ له وموطّد أركانه"[٤].

هذه الأمثلة التي ساقتها أكَّدت فيها أنَّ القياس بدأ في نشأة النَّحو مُستعارًا من القياس الفقهيّ لا القياس الأرسطي (التمثيليّ)، وكان المستشرقُ ميكائيل كارتر (M. Carter) قد أثبت هذه الحقيقة، وهي أنّ المنحى الفقهيّ القياسيّ كان طاغيًا على قواعد سيبويه، واستبعد النظر إليها من زاوية منطقيّة يونانيّة[٥]، وأيّده فيما ذهب إليه جيرار تروبو في مقالته[٦]، والمستشرق الألماني فولفديتريش فيشر (W. Fischer) في مقالته[٧] أيضًا، فخالف بها المستشرق الهولنديّ كيس فيرستيغ (K. Versteegh)، الذي أكَّد تأثّر النّحاة العرب في القياس النّحويّ بالمنطق الأرسطيّ[٨].

وسار على نهج فيرستيغ غير واحد من الباحثين العرب، أُشيرُ إلى طليعتهم الدكتور إبراهيم مدكور؛ ففي مقالته "منطق أرسطو والنّحو العربيّ"، رأى أنّ القياس النّحويّ موضوعٌ على نحو ما وُضع القياس

(١) نحلة، محمود أحمد: **أصول النّحو العربي**، دار المعرفة الجامعيَّة، مصر، ٢٠٠٤م، ص١٠٣.

(٢) انظر: الأفغاني، سعيد: **في أصول النّحو**، ط٤، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧م، ص٨٤، ٨٥.

(٣) ابن جنّي، أبو الفتح عثمان (٣٩٢هـ/ ١٠٠١م): **الخصائص**، ٣ج، تحقيق محمّد علي النّجار، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت)، ١/ ٣٦١.

(٤) إلياس، منى: **القياس في النَّحو**، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م، ص٢٢.

(٥) انظر: جهاميّ، جيرار: **الإشكاليّة اللغويّة في الفلسفة العربيّة**، ط١، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٤م، ص١٢٦.

(٦) "نشأة النّحو العربيّ في ضوء كتاب سيبويه"، ص١٢٥.

(٧) فيشر فولفديتريش (١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م): "**نظرات في نشأة النّحو العربيّ**"، نشرها وعلَّق عليها يوسف الجوارنة، **مجلة العلوم العربيَّة** بجامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة بالرّياض، ع٤١، ١٤٣٧هـ، ص٤٢.

(٨) انظر: فرستيغ، كيس: **عناصر يونانيّة في الفكر اللغوي العربي**، ترجمة محمود كناكري، ط٢، عالم الكتب الحديث، إربد–الأردن، ٢٠٠٣م، ص١٧٦، ١٧٧.

المنطقيّ من الناحية المنهجيّة، وأنّ النّحاة الأُوَل فَزِعوا إليه بحكم سَجِيّتهم وفطرتهم، وأنّه لم يَجئْ عبثًا، بل كان وليدَ تأثّرٍ بمنطق أرسطو(١).

وما ذهب إليه غير صحيح؛ لأنّ النّحاة المتقدّمين كانوا لا يَنْفكّون عن منطق الفقه الإسلامي، وطبّقوه على علوم العربيّة، ويكفي أنْ يشير غير واحد من المستشرقين إلى هذه الحقيقة التي باتت من أبجديّات البحث في سياق الحديث عن نشأة النّحو العربيّ على وجه الخصوص.

٣. ربط المنهج النّحويّ العربيّ بالمنهج التّحويليّ

تحاول صالِحةُ –اعتمادًا منها على دراسة الدّكتور عبده الراجحيّ "النَّحو العربيّ والدّرس الحديث"، التي لم تَخرج إلاّ من عباءته– رَبْطَ القياس النّحويّ بالبنيتينِ العميقة والسّطحيّة عند تشومسكي، حين تحدَّث عن عمليَّة التّفكير في وجهيها الداخليّ (العميق) والخارجيّ (السَّطحيّ)(٢)، لأنَّ نظريَّته تناسب عمليَّة إخراج القواعد في العربيّة، ولأنّ النّحو العربيَّ –في أحد جانبيه– والنَّحو التَّحويليّ يَصْدران عن أساس عقليّ، وهذا فرق جوهريّ بين هذين النّحوينِ والنّحو الوصفيّ، ذلك أنَّ الأَوَّلِينَ يَرَوْن أنّ العقل الإنسانيَّ هو وسيلة المعرفة، في حين ينتمي الوصفيّون إلى التَّجريبيّين الذين يَرونَ الوصول إلى المعرفة عن طريق التّجربة(٣).

وضربت صالِحة –لإثبات صحّة ما ذهبت إليه– نموذجًا من شعر امرئ القيس في باب التنازع، قال:

ولو أنَّ ما أسعى لأَدنى معيشةٍ كفاني، ولم أطلبْ، قليلٌ من المالِ(٤)

وترى أنَّ قوله هذا يمثّل الجانب الداخليّ (الحَدْسيّ) في العمل النّحويّ، وذلك يعني في نظرها أنَّ فكرة النّحو بدأت في اللحظة التي أنشأ فيها العرب كلامهم داخليًّا عميقًا، ثم إنَّ حوارات النّحويّين في هذا النّموذج وأضرابه، مثل: العامل في (قليلٌ) هو(كَفاني)، وليس (ولم أطلبْ)– تعود إلى قضيّة الافتراضات المرتبطة بالقدرات الأساسيّة للعقل الإنسانيّ، وهي "قدرات عامَّة بين النّاس ودراسة النّظام

(١) انظر: مدكور، إبراهيم بيومي (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م): "منطق أرسطو والنّحو العربيّ"، **مجلة مجمع اللغة العربية** بالقاهرة، ج٧، ١٩٥٣م، ص٣٤٢، ٣٤٣، ونظرات في التراث اللغوي العربي للمهيري، ص٨٨.

(٢) انظر: "صفاء النَّحو العربيّ"، ص٣٠.

(٣) انظر: الراجحيّ، عبده (١٤٣٠هـ/ ٢٠١٠م): **النحو العربيّ والدرس الحديث**، دار النهضة العربيّة، بيروت، ١٩٧٩م، ص١١٨.

(٤) الكنديّ، امرؤ القيس بن حُجْر (٥٤٠م): **ديوانه**، تحقيق محمّد أبو الفضل، ط٥، دار المعارف بمصر، ١٩٩٠م، ص٣٩، وانظر: "النُّقوش النبطيَّة"، ص٧٨.

الأساسيّ الذي تتولّد به قوانين البنية العميقة قبل تحويلها إلى الكلام السّطحي، ثمّ تنتقل إلى فكرة الكليّات"[١]، لذلك كان النَّظر في "المعنى" ملازمًا لهم عند النّظر في الأشكال والتراكيب، على حدّ تعبير الراجحيّ[٢].

أمّا الجانب الخارجيّ، فقد استعرضت صالِحةُ بعض القواعد النَّحويّة القياسيّة مما طُبّق لدى النّحاة القدماء –أو ما أَطْلق عليه الراجحيّ: "الجوانب التّحويليّة في النَّحو العربي"[٣]– منها قضيّة الأَصليَّة والفرعيَّة، وقضيّة العامل، وقواعد الحذف، وقواعد الزّيادة، وقواعد إعادة التّرتيب، مع أنَّ النَّحو العربيّ فيما يتراءى لكلّ صاحب نظر، نَحوٌ تحويليّ، وإنْ لم يُطلق عليه ذلك.

وصالحة إذْ خاضت غمار الرَّبط بين بنية اللغة العربيّة وفكرة العميق والسَّطحيّ عند تشومسكي، إنّما تهدف إلى الوصول إلى نتيجةٍ؛ مُؤدّاها رفضُ دعوى تأثُّر النّحو العربيّ في بداياته بالفكر اليوناني ورَدّه، وأنَّ قواعد النّحو العربيّ تبدأ من قدرة تفكير العرب أنفسهم، ولا علاقة لعمليّة تقعيدها بتأثير خارجيّ.

والظّاهر أنَّ هذا الرَّبطَ له ما يسوّغُه، ويَصبُّ في مَصلحةِ القضيَّة التي تناقشها صالحةُ، وهي أصالةُ الدّراسات اللغويّة عند العرب، واستقلالُها عن الفكر اليونانيّ، ذلك أنَّ نظرية تشومسكي تشبه في بعض تفصيلاتها نظريّة النّحو العربيّ ومتأثرة فيها[٤]؛ فإنَّ ما انكشف لتشومسكيّ وللتحويليّين في المستوى الدّلاليّ للجملة في بنيتها العميقة والسّطحيّة، قد انكشف –على حدّ تعبير الدكتور نهاد الموسى– لابن هشام الأنصاريّ (ت٧٦١هـ/ ١٣٥٩م)، ويظهر ذلك في احتكامه إلى المعنى في تراكيب لغويّة متعدّدة[٥]. وفي هذا السّياق قال الدكتور فوزي الشّايب وهو يشير إلى المنهج المُتَّبع في مباحث التّحويليين: "والقواعد التّحويليّة التي ارتبطت باسم تشومسكيّ ليست شيئًا من مبتكرات هذا العصر، فمفهومُ التّحويل معروفٌ في القواعد التقليديّة شرقًا وغربًا على حدّ سواء؛ فنحن في العربيّة لسنا بحاجة إلى قراءة تشومسكيّ لنعرف: أنَّ جملةً مثل: نَجَح زيدٌ وعمرو، آتيةٌ من جملتين هما: نَجَح زيد ونَجَح عمرو. وأنَّ أساليب الإغراء والتّحذير مثل: الصَّلاةَ الصَّلاةَ، والأسدَ الأسدَ، ناشئةٌ عن تحويلٍ

(١) "صفاء النَّحو العربيّ"، ص٣٣.

(٢) انظر: النّحو العربي والدَّرس الحديث، ص١٥٧.

(٣) انظر: المرجع نفسه، ص١٤٢ وما بعدها

(٤) انظر: جاسم، جاسم علي: "تأثير الخليل والجرجاني في نظريَّة تشومسكي"، **مجلة التراث العربي**، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، س٢٩، ع١١٦، ٢٠٠٩م، ص٧٧ وما بعدها.

(٥) انظر: الموسى، نهاد: **نظريَّة النَّحو العربي في ضوء مناهج النَّظر اللغوي الحديث**، ط٢، دار البشير، عمَّان، ١٩٨٧م، ص٦١، ٦٢، ٧١.

قِوامُه حذفُ الجملة الفعليَّة. وأنَّ مثل: إيّاك نعبد، محوَّلة عن "نعبدك". ولسنا بحاجة إلى قراءة شومسكيّ حتى نعرف أنَّ أصل: قال وباع، هو: قَوَلَ وبَيَعَ، وأنَّ أصل: اصطلحَ وازدهرَ، هو: اصْتَلَحَ وازْتَهر"(١).

وقول الشّايب هذا، هو في صميم ظاهرة "التأثّر والتأثير"، وتَجْدرُ الإشارة إليه، مع أنَّه لم يَسُقه ليدلّل به على الظاهرة، لكنَّ فيه ما يَدْعمُ وجهةَ نظر الباحثة، غير أنَّها إذْ حَذَتْ حَذْوَ الرّاجحيّ؛ فثمّة فرق كبير بين الدّراستين؛ ففي الوقت الذي سَعَت فيه دراسة الراجحيّ إلى البحث عن منهجٍ نُطوِّرُ به النّحو العربيّ؛ من خلال النّظر في أصول المنهج النّحوي عند العرب، على ضوء المناهج اللغويّة الحديثة؛ لأنَّ النّحو العربيّ القديم بما يقوم عليه من أسس لغويّة وإنسانيّة صحيحة، "صالِحٌ أنْ يَمدَّنا الآن بأصول المنهج الذي نبتغيه"(٢)– ذهبت صالِحةُ بما أخذته من وَحْي نظريّة تشومسكي إلى القول: "إنَّ عمليّة تقعيد النّحو العربيّ لا علاقة لها بالفكرة اليونانيَّة، ولا بتأثير مباشر منها"(٣).

وهنا، في سياق حديث صالِحةَ عن البنيتَينِ العميقةِ والسّطحيّة وربطِ القياس النّحويّ عند العرب بهما، تستوقفني عبارة المستشرق الألماني فولفديتريش فيشر عند حديثه عن المنهج النّحوي الجديد (الإنتاجي التّحويلي) الذي يتزعّمه تشومسكي، قال: "إنّ بعض العلماء يَعدّون المنهج الذي يَتّبعه سيبويهِ في كتابه شبيهًا بالمنهج التحويلي الحديث"(٤)، وذلك خطأ في المقارنة والمقاربة؛ فإنَّ الصَّوابَ في رأيي أنْ يُقال: إنَّ المنهج التحويلي الحديث، يشبه في كثير من مسائله المنهج المتَّبع في كتابِ "سيبويه"، الكتابِ الذي كان –على حدِّ مازن الوعر(٥)– قرأه تشومسكي مرجعًا له، وبيّن أنَّ النّحو العربيّ كانت له تأثيرات كبيرة على نظريّته في دراسة اللغة، وأنَّه كان مهتمًّا بالتراث النَّحوي العربيّ والعبريّ الذي نشأ في بعض ما كان قرأه من المرحلة الجامعيَّة، وأنَّه لا يَشْعر أنَّه كُفْءٌ للحديث عن البحوث اللسانيَّة التي كان العربُ قد أسهموا بِها، لبناء علم اللسان الحديث.

(١) الشّايب، فوزي: **محاضرات في اللسانيّات**، ط١، منشورات وزارة الثقافة الأردنيَّة، عمَّان، ١٩٩٩م، ص٣٨١–٣٨٢.

(٢) النّحو العربي والدرس الحديث، ص١٦١.

(٣) "صفاء النَّحو العربيّ"، ص٣٣.

(٤) "نظرات في نشأة النّحو العربيّ"، ص٣٦.

(٥) انظر مقابلة مازن الوعر تشومسكي في كتابه "دراسات لسانيَّة تطبيقيَّة"، ص٢٩١–٣١١، نقلاً عن: عمايرة، حليمة: **الاتجاهات النَّحويَّة لدى القدماء في ضوء المناهج المعاصرة**، ط١، دار وائل للنشر والتوزيع، عمَّان، ٢٠٠٦م، ص٢٥١.

وعليه، فإنَّ الاعتمادَ على نظريَّة تشومسكي للتدليلِ بها على أصالةِ النّحو العربيِّ، وخُلوّه من تأثيرات المنطق، منهجٌ صحيحٌ في المقاربةِ والتأصيلِ ولا ينعكس، مع أنَّ مسألةَ تأثّر تشومسكي بالنّحو العربيّ لها مؤيّدوها، ومنهم أستاذنا الدكتور نهاد الموسى، ومعارضوها، ومنهم: مازن الوعر، وحمزة المزينيّ. لذلك، إذا حصلَ منه، فذلك أدعى. وإذا لم يكنْ، فذلك يدلُّ على عالميَّة اللغة، وأنّها تؤولُ في نهاية المَطاف إلى مُشتركٍ ما بين اللغات.

رابعًا: وقوع التأثّر

تُعدُّ المناظرة[١] التي عقدها الوزير ابن الفرات (ت٣٢٧هـ/ ٩٣٨م) بين أبي بشر متّى بن يونس القنّائي وأبي سعيد السّيرافي بشأن المنطق اليونانيّ، من بين المناظرات الشهيرة في التراث العربيّ واتّصالة بثقافات عصره؛ أثارت أحاسيس العلماء وانعطفت بمباحثهم وجهةً جديدةً في سياق علاقة العلوم بعضِها ببعض، فراح المنطقيّون ينتصرون لِمتّى مع أنَّه أَخْفَقَ في الإجابة عن أسئلة السّيرافي، وانتشى النّحويّون الذين انكشف لهم زيفُ ادعاء مَتّى؛ أن المنطق ميزان يُعْرف به صحيحُ الكلام من سقيمه.

وتأثَّرَ الفيلسوف أبو نصر الفارابيّ (ت٣٣٩هـ/ ٩٥٠م) من بين العلماء بهذه المناظرة، فدفعته إلى الاهتمام بعلوم اللغة واتّصالها بعلوم المنطق؛ ورأى أنَّ الأسئلة التي أخفق فيها مَتّى تَسْهل الإجابةُ عنها، وأنَّ أَمْرَ الفَصْل بين علم المنطق وعلوم اللغة، وحاجةَ النّحوي إلى المنطق، غيرُ مسلّم بها عنده، لأنّه كان يعتقدُ أنّ دراسةَ اللغةِ والنّحو طريقٌ موصِلةٌ لتحصيل علوم المنطق وفَهْمِها[٢]، قال في حديثه عن صناعة المنطق: "وهذه الصّناعة تناسب صناعة النّحو، وذلك أنّ نسبة صناعة المنطق إلى العقل والمعقولات، كنسبة صناعة النّحو إلى اللسان والألفاظ، فكلّ ما يُعطيناه علمُ النّحو من القوانين في الألفاظ، فإنّ علم المنطق يعطينا نظائرها في المعقولات"[٣]، ذلك ليثبت للتيار القائل بتعذّر التوفيق بين منطق اليونان والنحو العربي؛ أنّ الفلسفة في نهاية الأمر عبقريّة لغويّة ويقين منطقي[٤]،

(١) انظر نصّها: التوحيدي، **المقابسات**، ص٦٨-٨٦.

(٢) انظر: الجوارنة، يوسف: "موقف الدارسين من نصّ الفارابي: حنّا حدّاد نموذجًا"، **مجلة الجامعة الإسلاميَّة** بالمدينة المنوَّرة، س٤٦، ع ١٦٥، ٢٠١٣م، ص٦٢٠.

(٣) الفارابي، أبو نصر محمّد بن محمّد (٣٣٩هـ/ ٩٥٠م): **إحصاء العلوم**، تحقيق علي بو ملحم، ط١، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٦م، ص٢٨.

(٤) انظر: عفيفي، زينب: **فلسفة اللغة عند الفارابي**، ط١، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٧، ص٢١٤.

مع أنَّ صلة النَّحو باللغة أقوى من صلة المنطق بها، قال أبو سليمان المنطقيّ (ت٣٧١هـ/ ٩٨١م): "النَّحو تحقيق المعنى باللفظ، والمنطق تحقيق المعنى بالعقل"(١).

وقد بدا أنَّ صالِحة أخذت بالرأي الشائع بين العلماء والباحثين، من تأثر العلوم اللغويَّة بالمنطق والفلسفة في القرن الرابع الهجري، القرنِ الذي راجت فيه بضاعة المناطقة والفلاسفة فضلاً عن العلوم الأخرى التي لها اتّصالٌ ما بهما، ومنها النّحو العربيّ، ورأت أنَّه "لا مجال لإنكار تأثير المنطق والفلسفة في النّحو العربيّ"، وأنَّ الهجوم على المنطق لا يؤثّر في هذه المرحلة على الحقيقة، وهي "خضوع البحوث النَّحويَّة للقواعد والأساليب المنطقيَّة، لأنَّ المهاجمين –في ظنّها– تأثَّروا في بحوثهم بالمنطق"، لأنّها مرحلة "امتزجت فيها الخصائص الإسلاميَّة بالملامح المنطقيَّة"(٢).

وقد استدلّت صالِحةُ بما ذَهَبَ إليه مَتَّى في المناظرة المشار إليها، إذْ قال: "يَكْفيني من لغتكم هذا "الاسمُ" و"الفعلُ" و"الحرف"، فإنّي أتبلَّغُ بهذا القدر إلى أغراضٍ قد هَذَّبتها لي يونان"، وتبيَّن لها أنَّ ردَّ السيرافيّ إذْ قال لِمَتَّى: "أخطأتَ، لأنَّك في هذا "الاسم" و"الفعل" و"الحرف" فقيرٌ إلى رَصفِها –أي: أغراضِ اللغة ومعانيها– وبنائِها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها"– إنّما هو من طبيعة لغة العصر الذي تأثَّر بالفلسفة والمنطق(٣) وذلك صحيح، لأنَّ السّيرافيّ هو ابن العصر، عصرِ الثَّقافة المنطقيَّة في النّحو، وشيخُه أبو بكر بن السّراج (ت٣١٦هـ/ ٩٢٨م) أَخَذَ المنطق عن الفارابي الفيلسوف، بل كان أَمْيلَ إلى المنطق منه إلى النَّحو إذْ كان تلميذًا لأبي إسحاق الزَّجاج (ت٣١١هـ/ ٩٢٣م)، ومعنى هذا أنَّ السّيرافيّ لم يُفْلِت من حُمَّى الثقافة المنطقيَّة، وإنَّ رَفْضَ النّحويين المنطقَ يَرْجع –على حدّ الدكتور المهيري– إلى عدم وَعْيهم بأنَّه أصبح من مكوّنات ثقافتهم، أو إلى عدم تَمكّنهم منه التّمكّن الذي يُجنّبهم التّناقض(٤).

وصالِحةُ وهي تقدّم لمبحثها هذا، نقلت ما سطَّرة الدكتور علي سامي النشّار في حديثه عن "الإسلام وفلسفة النَّحو"، الذي رأى أنَّ مباحث اللغة ازدهرت في العالم الإسلاميّ ازدهارًا كبيرًا، مستندةً إلى تفكير فلسفيّ نابع من بنية اللغة(٥)، ومعنى هذا أنَّ فلسفة النَّحو والتَّفكير الفلسفيّ فيه نابع من بنية اللغة نفسها، وليس متأثرًا فيه بعلوم يونان، أيّ أنَّ اللغة والنَّحو صارا أداةً لكلّ طوائف المفكّرين في

(١) المقابسات، ص١٧٢.

(٢) "موقف النّحاة من فلسفة النَّحو العربيّ"، ص١٢٣، ١٣٩، ١٤٠ على الترتيب.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ص١٣٩.

(٤) انظر: المهيري، عبدالقادر: "النحو والمنطق بين الرّفض والمهادنة"، **حوليّات الجامعة التونسيَّة**، ع٥١، ٢٠٠٦م، ص٢٠.

(٥) انظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ١/ ٤٩، ٥٦، و"موقف النّحاة من فلسفة النَّحو العربيّ"، ص١٢٢.

المجتمع الإسلاميّ، بل إنَّ المذاهب الفقهيَّة إنّما نشأت عن اختلافات البنية اللغويّة الصّادرة عن هذا المجتمع، على حدّ تعبير النشّار.

أمّا أنْ تجعل صالِحة من كلام النشار هذا علامةً على تأثّر النَّحو العربيّ بالنّحو اليونانيّ، وتَسوقَ رأي كلّ من المستشرق فيرستيغ، والمستشرق الألماني أدلبارتوس ميركس (A. Merx)، والدكتور مهدي المخزوميّ، وإبراهيم مدكور في هذه القضيّة– فذلك خروج عن السياق الذي استشهدت له بكلام النشّار، واضطرابٌ في فهم المقصد الذي رمى إليه، ورأت أنَّ ما عليه النَّحو في القرن الرّابع من علل وأقيسة في معرفة الظّواهر النّحويّة وتعليلها، يعود إلى تطبيق المنهج الفلسفيّ على الدّراسة النّحويّة(١).

خامسًا: نظريَّة النَّظم

تحدَّثت صالِحةُ بحديث موجز عن أثر الفلاسفة المسلمين في تناول اللغة والمنطق، منهم الفارابي الفيلسوف، وابن سينا الرّئيس (ت٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م)، وابن رشد، غير أنَّها وقعت في خطأ وهي تَعْرض لجهود ابن سينا، وقيامِه بترجمة مقدّمة كتابه "الشّفاء" من العربيَّة إلى اللاتينيّة ممّا يتعلّق بمنطق أرسطو، إذْ ذهبت إلى أنَّ تلميذه عبد القاهر الجرجانيّ (ت٤٧١هـ/ ١٠٧٨م) قد ساعده في هذه التَّرجمة، واستنتجت لذلك أنَّ الجرجانيّ في نظريَّة النَّظم، تأثَّر بالفكرة الفلسفيَّة والمنطقيَّة لأرسطو تأثّرًا مباشرًا، لأنَّ كتاب "الشّفاء" تأثّر بها(٢).

أمَّا أنَّ الجُرْجانيّ تلميذ ابن سينا، فلم يثبت فيما وقع بين يديَّ من مصادر أنَّه تتلمذ عليه، مع أنَّ ابن سينا أقام بجرجان فترة، والذي أوقع صالِحةَ في هذا الخطأ، هو أنَّ تلميذه الملازم له –أبا عُبيد الجُوزَجانِيّ (ت٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م)– هو من ساعده في ترجمة مقدمة "الشّفاء"، الذي ألفه تلبية لرغبته(٣)، قال أبو عُبيد: "وكان من عجائب أمر الشَّيخ أنّي صحبته خمسًا وعشرين سنة، فما رأيتُه إذا وقع له كتابٌ مُجدِّد ينظر فيه على الولاء، بل كان يقصد فيه المواضع الصَّعبة منه والمسائل المشكلة،

(١) انظر: "موقف النّحاة من فلسفة النَّحو العربيّ"، ص١٢٤.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص١٢٨.

(٣) انظر: بدوي، عبد الرَّحمن (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م): **الفلسفة والفلاسفة في الحضارة العربيَّة**، ط١، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنَّشر، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٨، ١٩.

فينظر ما قاله مصنّفه فيها، فيتبيّن مَرْتبتَه في العلم، ودرجتَه في الفهم"[١]، فَتَشابَهَ الرَّسمُ عليها، فحرَّفت "الجُوزَجانِيّ" إلى "الجُرْجانيّ".

والذي يدعو إلى الدَّهشة والاستغراب أنَّ صالِحةَ عَزَت تَرْجمة الجُرْجانيّ لمقدّمة "الشّفاء" إلى الباحثة زينب الخضيري في كتابها "ابن سينا وتلاميذه اللاتين"، قالت صالِحة: "وقيل بأنَّ عبد القاهر الجُرجانيّ من أوائل تلاميذه قد ساعده في ترجمة هذه المقدّمة في الكتاب إلى اللاتينيّة"، وأحالت إلى كتاب زينب السَّالف الذي خلا من هذه السّقطة، قالت زينب: "أمّا هذا الجزء الذي تُرْجم إلى اللاتينيّة فلا يزيد عن عدّة صفحات، هي مقدّمة قصيرة بقلم تلميذِ ابن سينا وصديقِه الجُوزَجانِيّ"[٢]؛ فهذا خلط منها وتشويه، وخروج بالمقصد عن الجادَّة التي تتناولها.

وعليه، فإنَّ تأثُّر الجرجانيّ بالفكر اليونانيّ في نظريَّة النظم كما أشارت صالِحةُ إذْ قالت: "إنَّ رأي عبد القاهر الجرجانيّ في "النَّظم" أشملُ نظريَّة في تطبيق الفكرة الفلسفيَّة والمنطقيَّة في النَّحو العربيّ"[٣]، فليس لأنَّه تلميذُ ابن سينا، فذلك لم يثبت، وأُستاذ عبد القاهر الذي يُشار إليه، ولم يكن له أستاذ سواه على حدّ ياقوت، فهو نزيل جُرجان أبو الحسين محمّد بن الحسين الفارسيّ (ت٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م)، ابن أخت الشَّيخ أبي علي الفارسيّ (ت٣٧٧هـ/ ٩٨٧م)[٤]- بل لأنَّ عصر الجُرجانيّ عصرٌ تلاقحت فيه العلوم والثقافات، ومنها النَّحو العربيّ، والجُرْجانيّ ليس بِدْعًا بين العلماء، فقد تأثَّر في مباحثه البلاغيَّة والنَّقديّة بالثقافة الإغريقيَّة وفي مقدَّمتها بحوث أرسطو؛ فقد تُرجم كتابه "الخطابة" إلى العربيَّة في القرن الثالث الهجريّ، وتُرجم كتابه "الشّعر" في القرن الرابع[٥].

ونظريّة "النَّظم" التي انعطفَ الجرجاني بالنّحو من خلالها مُنْعطَفًا جديدًا في كتابه "دلائل الإعجاز"، تقوم على نَظْم الكلام وترتيب المعاني من خلال تعليق بعضها ببعض، وذلك يقتضي ترتيب الألفاظ في العبارة، إذْ لا يكون للَّفظ مزيَّةٌ في ذاته، وإنَّما في تناسق معناه مع معنى اللفظ الذي

(١) ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن سديد الدين (٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م): **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ص٤٤٢.

(٢) الخضيري، زينب محمود: **ابن سينا وتلاميذه اللاتين**، ط١، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص١٩.

(٣) "موقف النّحاة من فلسفة النَّحو العربيّ"، ص١٣١، ١٣٢.

(٤) انظر: الحموي، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م): **معجم الأدباء**، تحقيق إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م، ٦/ ٢٥٢٣، ٢٥٢٤، وإنباه الرّواة، ٢/ ١٨٨، ٣/ ١١٦.

(٥) انظر: الجندي، درويش: **نظريَّة عبد القاهر في النَّظم**، مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٠م، ص٧، ٨.

يجاوره في النَّظم[١]، ولا عجب في ذلك؛ لأنَّ "اللفظ والمعنى هما عماد الظّاهرة اللغويَّة وأسس العبارة، وكلُّ كلام عن الكلام، من أيّ زاوية كان، هو في جوهره تحديدٌ لماهيَّة كلّ منهما، وتحليل للكيفيّات التي يتمّ بها تلاحمهما سواء في مستوى اللفظ المفرد، أو في مستوى التركيب"[٢].

وهذه الطَّريقة تغاير منهج النَّحويين القائمَ على الجانب الشَّكليّ في تسويغ الحركات الإعرابيّة على أواخر الكلم- في أنَّها تقومُ على المعنى في التراكيب، من خلال مباحث التقديم والتأخير، والحذف والذّكر، والتعريف والتنكير وغيرها، ولعلّ هذا الطّابعَ الذي اتَّسم به علم المعاني عند البلاغيين، جَعَلَه نحوًا من النَّحو، وصَيَّره كالنَّحو صناعةً مضبوطةً لا منهجًا ذوقيًّا للنَّقد الأدبيّ على ما يرى الدكتور تمّام حسّان، الذي جعل "العلاقات السّياقيَّة" عنده تُقابل "التَّعليق" الذي تقوم عليه نظريّة الجُرجانيّ[٣].

وضَرَبتْ صالِحةُ أمثلة على طريقة الجرجانيّ في قراءة الجمل والتراكيب من خلال الدّقّة في توخّي معاني النَّحو، منها قولُه (على الصّورة المنقولة عنها): "إنَّ إضافة المصدر إلى العامل تقتضي وجوده، أي: وجود المصدر ووقوعه، ولذلك يقول: أمرت زيداً بأن يخرج غداً ولا يقول: أمرته بخروجه غدًا"، وقالت في التعقيب على هذا النصّ: "معنى ذلك أنَّك إذا كنت دقيقًا فاستخدمت (أنْ + الفعل المضارع)، فهذا في معناه النَّحويّ استقبال، ولكنَّك غير دقيق لو أتيتَ بالمصدر وهو الخروج، لأنَّ هذا في معناه النَّحوي: وقوعُ الخروج ووجوده في الماضي، فلا يصح استقبالاً"[٤].

وقد اجتزأت صالِحةُ كلام الجرجانيّ فجاء مبتورًا. أمَّا النصّ كاملاً، فصوابه قولُ الجرجانيّ: "ولا يَصحُّ قياس المصدر في هذا على الفعل، أعني أنَّه لا ينبغي أنْ يُظنَّ أنّه كما يجوز أن يُقال: "ما مِن عادتها أنْ تَحْفظَ الأشياء"، كذلك ينبغي أنْ يجوز: "ما من عادتها حِفْظها الأشياء"، ذاك أنَّ إضافة المصدر إلى الفاعل يقتضي وجوده، وأنه قد كان منه، يُبَيِّن ذلك أنك تقول: أمرت زيداً بأن يخرج غداً ولا تقول: أمرته بخروجه غدًا"[٥].

(١) انظر: قطب، سيّد (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م): **النقد الأدبي أصوله ومناهجه**، ط٦، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ١٩٩٠م، ص١٢٦.

(٢) صمّود، حمادي: **التَّفكير البلاغي عند العرب**، منشورات الجامعة التونسيّة، ١٩٨١م، ص٤٦٠-٤٦١.

(٣) انظر: حسان، تَمّام (١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م)، **اللغة العربيَّة معناها ومبناها**، دار الثّقافة، الدار البيضاء، ١٩٩٤م، ص١٩، ١٨١.

(٤) انظر: "موقف النّحاة من فلسفة النَّحو العربيّ"، ص١٣٣، ١٣٤.

(٥) الجرجاني، عبد القاهر: (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م)، **دلائل الإعجاز**، قَرَأه وعَلَّق عليه محمود محمّد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٨٤م، ص٥٥٢.

وهذا النّص –بصورته هذه– متّصل بنصّ سابق له، ساقه الجرجانيّ لبيان خَطإٍ في بيت المتنبّي:

عَجَبًا له! حَفِظَ العِنانَ بأنْمُلٍ ما حِفْظُها الأشياءَ مِنْ عاداتِها[1]

وأشار إلى أنَّ المعنى فيه لا يتَّفق ومعاني النَّحو، قال: "مضى الدَّهرُ الطّويلُ ونحن نقرؤه فلا ننكر منه شيئًا، ولا يقع لنا أنَّ فيه خطأً، ثمّ بانَ بأَخَرَةٍ أنَّه قد أخطأ؛ وذلك أنّه كان ينبغي أنْ يقول: "ما حِفظُ الأشياءِ من عاداتها"، فيضيف المصدر إلى المفعول، فلا يذكر الفاعل، ذاك لأنَّ المعنى على أنَّه يَنْفي الحِفظ عن أنامله جملةً، وأنّه يزعم أنَّه لا يكون منها أصلاً، وإضافته الحِفظ إلى ضميرها في قوله: "ما حِفْظُها الأشياءَ"، يقتضي أنْ يكون قد أثبت لها حفظًا"[2].

وللرَّبط بين النصّين، جاء قوله: "ولا يَصحُّ قياس المصدر في هذا على الفعل"، أي: إذا كانت إضافة المصدر إلى الفاعل تقتضي وجوده، فالصّواب قوله: "ما حِفظُ الأشياءِ من عاداتها".

ونَسَبت صالِحةُ إلى الجرجانيّ قولَه: "إنَّ إضافة المصدر إلى العامل تقتضي وجوده"، وذلك خطأ؛ لأنَّ المصدر لا يضاف إلى عامله على ما نَسَبت، بل يضاف إلى معموله فاعلاً كان أو مفعولاً، ومع الفاعل يقع المصدر ولا يقع عند إضافته إلى المفعول؛ لذلك رأى الجرجانيّ أنَّ إضافة المصدر إلى ضمير الفاعل لا تتّفق ومعاني النّحو في بيت المتنبّي، ومثله في عدم صحّة قولك: "أمرته بخروجه غدًا"؛ لأنَّ وقوع الحدث بإضافة المصدر إلى ضمير الفاعل، لا يتَّفق والمعنى المراد من كلمة "غدًا".

سادسًا: تَذييل (التَّملُّك وظاهرة التأثّر)

يمكن أنْ تُدْرس ظاهرة التأثير والتأثّر بين الأمم والحضارات، في إطار مغاير لموضوع "الأصالة" و"التَّقليد"، لأنَّ هذه الظّاهرة لا تنفكّ أُمَّةٌ من الوقوع في طُغْيانها، بصرف النَّظر عن الحالة التي تتشكَّل فيها وتؤول إليها؛ إمّا ذوبانٌ وانصهار، وإمَّا صَهْرٌ وانطلاق، وليس القصد من الدّراسة أن تكون في إطار أحدهما، بل إنَّ من مستلزمات الموقف العلميّ أن نتناول الظاهرة خارج حدودهما، أي: الصَّهر والانصهار، أو خارج مركَّبات "الغرور والاستعلاء"، و"النَّقص والاحتواء" على حدّ تعبير الدكتور المسدّي[3].

(١) المتنبي، أبو الطيّب أحمد بن الحسين (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)، **ديوانه**، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٣م، ص١٨٦.
(٢) دلائل الإعجاز، ص٥٥١–٥٥٢.
(٣) انظر: المسدّي، عبد السلام: **اللسانيّات وأسسها المعرفيَّة**، ط١، الدار التونسيّة للنشر، ١٩٨٦م، ص١٧٦.

وأقصد بالإطار الجديد ما يُطلِقُ عليه أنصارُه "التَّمثُّك"، وقد تبنّى هذا النَّهج الدكتور عبد الحميد صبرة، وهو يؤرّخ لـ "العلم العربيّ في حضارة الإسلام"، وهو نَهْج يقوم على أنَّ العرب بدؤوا حركة علميَّة، واتَّصلوا بما كان مثلهم وتَمَلَّكوه، وتَصرَّفوا فيه تَصرُّفًا جديدًا، وقد حاول الدّكتور عبده الرّاجحي أنْ ينطلق من هذا الاتّجاه وهو يعرض لقضيَّة "النَّحو العربيّ وأرسطو"[١]، ظنًّا منه أنَّ هذه الطريقةَ تعين على عَرْض القضيَّة في إطارها الصَّحيح.

وكان العرب استحضروا العلوم والثقافات الأخرى، ونَشِطت في بلدانهم حركةُ ترجمةٍ قويَّة، نَقَلوا بها العلومَ من اللغات الأخرى، ومنها اليونانيّة والسّريانيّة والفارسيّة والهنديّة إلى اللغة العربيّة، وتَصرَّفوا فيها، وطَبَعوها بطابعهم وما يتوافق وثقافتَهم، وإلى هذا أشار فولفديتريش فيشر بقوله: "ومن المعروف أنّ المسلمين عَرَبًا كانوا أم غير عَرَب، سرعان ما أَخَذوا ما يَبدو لهم صالحًا من هذه العلوم واستفادوا منها، فبدؤوا ينقلون الكتب والرسائل المكتوبة باللغة اليونانيّة أو السّريانيّة أو الفارسيّة إلى العربيّة، ونتيجة لذلك كانت الحضارة الإسلاميّة تَتصرّف في مجموعةٍ واسعةٍ من الكتب العلميّة، التي تتناول جميع مواضيع العلوم باللغة العربيّة"[٢].

وهذا التصرّف لم يكن عفويًّا، بل نَتَجَ عن حركة منظّمة سَعَت إلى صَهْر العلوم في سياق الحضارة العربيّة والإسلاميَّة، فأبدعوا في سياقهم وأجادوا؛ إذْ لم يقفوا عند حدود النَّقل والتَّرجمة حَسْبُ، بل تصرَّفوا بالعلوم زيادة وشرحًا.

وكان السّيرافي قد أشار إلى شيء من هذا القبيل في مناظرته مَتَّى، وهو أنّه لا توجد لغةٌ من اللغات تُطابق لغة أخرى "من جميع جهاتِها بحدودِ صفاتِها، في أسمائِها وأفعالِها وحروفِها، وتأليفِها وتقديمِها وتأخيرِها، واستعارتِها وتحقيقِها، وتشديدِها وتخفيفِها، وسعتِها وضيقِها، ونَظْمِها ونَثْرِها، وسَجْعِها ووزنِها ومَيْلِها، وغير ذلك مما يطول ذكره؛ وما أظنُّ أحدًا يَدْفعُ هذا الحُكْمَ أو يَشُكّ في صوابه مِمَّن يَرْجع إلى مُسْكةٍ من عقل أو نَصيبٍ من إنصاف"، ثمَّ أضاف يسأل مَتَّى: "فَمِنْ أين يَجِبُ أَنْ تثق بشيء تُرْجِم لك على هذا الوصف"؟[٣]

وعليه، فإنَّ طريقة الجرجانيّ في النّظم، وإنْ كان قد انتفع بها بما ذكره أرسطو في كتابه "الخطابة"، فليس لأنّه نقل عنه، على ما يقوله إبراهيم سلامة، بل لأنه كان يفهم كما يفهم أرسطو أنَّ

(١) انظر: النّحو العربي والدّرس الحديث، ص١٠ هـ٢، ١٥٩، ١٦٠.
(٢) "نظرات في نشأة النّحو العربيّ"، ص٣٧، ٣٨.
(٣) المقابسات، ص٧٥.

النّحو صُلْب البلاغة[١]، بيد أنّه كان له من تذوّقه الأدبيّ عاصمٌ قويّ، أبقاه في دائرة المنهج الذي تناول "النَّظم" على أساسه في "دلائل الإعجاز"، وهو محاولته وضع قواعد فنيّة للبلاغة والجمال الفنّي[٢].

وقال محمّد خلف الله أحمد في حديثه عن نظريّة النظم ومدى تأثّر الجرجانيّ فيها بكتابَيْ أرسطو "الخطابة" و"الشّعر"، قال: "إنَّ هذا التأثير لا ينافي الأصالة، ولا ينفي عن عبد القاهر صفة العالم المبتكِر، ولا يُقلِّل من أهمية نظريَّته التي لم يَسْبقه سابقٌ إلى عَرْضِها، وتحقيقِها، وإفرادِ موضوعها بالدَّرس...، فمنهجُه وطريقةُ تأليفه إذن، من أبرز المعالم في الدِّراسات العربيَّة النقديَّة، وشخصيتُه العلميَّةُ في نظريَّته واضحةٌ حقًّا بجانب شخصيَّة "أرسطو"، وإنَّ قدرتَه على تسخير العلم في كشف أسرار الذوق لدليل على أصالته كفيل بخلوده"[٣].

ولذلك، يمكن القول: إنَّ ما صَنَعه من مباحث في "دلائل الإعجاز" يفوق موضوع التأثّر، ويتجاوزه إلى أنَّه أبدع نظريّته وأنتجها في سياق الثقافة العربيَّة والحضارة الإسلاميَّة، اللتين كانتا نتيجة حتميَّة للظاهرة القرآنيّة، وهذا ما فات صالِحةَ التَّنبُّه إليه، والتَّنبيه عليه في سياق نظريَّة التأثير والتأثُّر.

وإذا صحّ أنَّ أبا الأسود تأثّر بِنَقْطِه "الإعراب" بطريقة السُّريان في نَقْط كتابهم المقدّس حفاظًا عليه، فليس في ذلك ضير، بل إنّه في صنيعه هذا فَجَّرَ حركةً لغويّة، تبنّاها تلاميذه ونقلوها إلى تلاميذهم الذين صاغوا العربيَّة في أحضان ثقافتهم القرآنيّة، خالصة من كلّ شائبة. والعربُ مسبوقون بهذا الحراك اللغويّ القائم على أساس دينيّ؛ وليس السُّريان بدعًا في ذلك، بل إنَّ النَّحو عند الهنود قام على هذا الأساس خادمًا لأقدم الآداب الدِّينيَّة في العالم (الفيدا)[٤].

وإذا كان العالم الأمريكي تشومسكيّ قرأ "كتاب" سيبويه، وتأثَّر بالنّحو العربيّ، واعترف بأنّه ليس كُفْئًا للحديث عن البحوث اللسانيَّة التي كان العربُ قد أسهموا بِها، لبناء علم اللسان الحديث، على ما أشرت، فإنَّنا –نحن العربَ– لا نستطيع بحال أن نقلّل من جهوده العلميَّة في دراسة اللغة في العصر الحديث، ولا نقف عند حدود الاتّهام والادّعاء، على الطَّريقة التي مارسها غير واحد من المستشرقين في التقليل من شأن العرب في إنتاج العلوم والتأسيس لها.

(١) انظر: بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، ص٣٦٨، نقلاً عن: نظريَّة عبد القاهر في النَّظم، ص١٢٢، ١٢٣.

(٢) انظر: النقد الأدبي، قطب، ص١٢٦.

(٣) أحمد، محمّد خلف الله (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م): **من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده**، معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، ١٩٧٠م، ص٤٢-٤٣.

(٤) عمر، أحمد مختار: **البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب**، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٢م، ص٧٣.

ولعلّ هذا الإحساس يقود إلى القول –من خلال فكرة التَّملُّك التي أراها تَفْرض نفسها: إنَّ الأمم والحضارات في نَهَضاتها المختلفة ومنها اللغوية، لا تبدأ من نقطة الصّفر إلاّ في حالات ضيّقة، منها عدم القدرة في الوصول إلى الآخر ونَقْل علومه– وإنّما تنطلق من مواضع القوّة فيما وَصَل إليها من معارفِ الآخرين وعلومهم، والجنسُ البشريُّ –على ما يرى روبرت روبنز (R. Robins)– يبقى مَدينًا لكلّ الثقافات التي رَعَتْ تَطوّرَ العلوم بطريقة أو بأخرى، وذهب في مقدّمته التي صدّر بها موجزه في تاريخ علم اللغة، إلى أنَّ علم اللغة في أوروبّة لا يُمْكنه أن يكون على صورته الآن، لولا الأفكار التي رفدته بها الأعمال اللغويّة من خارجها، يشير بذلك إلى الأعمال اللغويّة الصّينيّة والعربيَّة والهنديَّة في سياقاتها الثّقافيّة والأدبيّة، ويَقْصد إلى إنتاج دراسة لغويّة تَسدّ ثغرة في فهم تاريخ العالم الثقافيّ[١].

وقد صَدَرَ الدكتور نهاد الموسى في دراسته القيّمة "نظريّة النَّحو العربيّ" من هذه البابة –بابة التّملّك– التي تدفع باتّجاه عالميّة اللغة، من خلال الكشف عن أنظار النّحويين العرب في سياق الدَّرس اللغوي الحديث، وما قَدَّموه من معارف أفاد منها الدَّرس اللغويّ الحديث بمستوياته المختلفة، قال: "ويُصبح لِذُؤابتَيْ سيبويه، وعِمامتَيِ ابن الأنباري وابن هشام وأضرابِهم موقعٌ مقرَّر، ومنزلةٌ جليلة، وترتيبٌ مُتَّسق بين القُبَّعات الغربيَّة؛ على وجه التقدّم والسَّبق والتأثير، أو على وجه الموازاة والتّقابل"[٢]. أقولُ: وبعبارته الأخيرة "على وجه التقدّم والسَّبق والتأثير، أو على وجه الموازاة والتّقابل"، خرج بالنَّحويين العرب من دائرة الذّات إلى العالميَّة.

وبعد، فأجدني مضطرًّا لقفل هذا البحث بمقولةٍ للدكتور حسن عون، تَصُبّ في هذا السّياق، فإنّه بعد أن ساق الأدلّة على تَأثُّرِ أبي الأسود بِنَقْطِه بالسُّريان، وأنَّ ذلك لا يُقلِّل من مجهوده فيه، قال: "إنَّ الحضارة الإغريقيَّة القديمة قد أُسّست على صلاتها بالحضارة البابليّة – الآشوريّة من ناحية، وبالحضارة المصريّة القديمة من ناحية أخرى؛ ومع هذا، فلم يَمْنعها ذلك مِن أنْ تَسود العالم، وتَمْلأ شُعوبَه بِمبادئِها العديدة، ومعارِفِها المختلفة"[٣]. نعم، هذا هو منطقُ حركيَّة العلوم ونشوئها وارتقائها.

(١) انظر: روبنز، روبرت: **موجز تاريخ علم اللغة في الغرب**، ترجمة أحمد عوض، عالم المعرفة (٢٢٧)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط٣، ١٩٩٧م، ص١٢، ١٦، ٢١.

(٢) انظر: نظريّة النّحو العربيّ، ص١٨.

(٣) اللغة والنحو، حسن عون، ص٢٤٩.

الخاتِمة:

تناول البحث التأثيرات الأجنبيّة في النّحو العربيّ في كتابات الدكتورة صالِحة يعقوب، الباحثة الماليزيّة في فلسفة النّحو العربيّ، وقد خلصتُ فيه إلى بعض النتائج أُجْملها فيما يأتي:

١. لم تخرج صالِحة عمّا تواتر عليه معظم الباحثين في:

- ما اختارته من أنّ المرحلة الأولى من مراحل تأسيس النّحو العربيّ في مَطالعه، خاليةٌ من أيِّ شائبة من شوائب التأثر، وهي ابتكار عربيّ خالص، وذلك لبعد العهد بالثقافات الجديدة الطارئة في العصر العباسيّ، وانتقال علوم الآخرين إلى اللغة العربيّة من طريق التّرجمة- مستدلَّة فيما ذهبت إليه بغير دليل من دلائل الحجاج، ومنها التّرجمة، وقياس الحضرميّ النَّحويّ، والبنية اللغويّة وغيرها.
- ما رأته من أنَّ المرحلة التي امتزجت فيها الخصائص الإسلاميّة بالملامح المنطقيّة في القرن الرابع الهجريّ؛ فتداخلت العلوم، وتلاقحت الفُهوم، هي مرحلة ظَهَر فيها تأثر النّحو العربيّ بالفلسفة والمنطق.

٢. لعلّ إقحامَ الباحثةِ الإمامَ عليّ -رضي الله عنه- في مسألة وَضْع النّحو في نشأته، يَعْتوره الظنّ والتّخمين والعاطفة الدّينيّة، وذلك مَرجوح في دراسات التَّأثيل والتَّأسيس الخاصّة بالنّحو العربيّ.

٣. لا تختلف طروحات "جولدتسيهر" الخاصّة بالنّحو العربيّ عن طروحات "رينان"؛ فكلاهما يصدران من مشكاة واحدة.

٤. ربط المنهج النَّحوي العربيّ بالمنهج التَّحويليّ الشومسكيّ لإثبات أصالته، منهج مقبولٌ في سياق الظّاهرة؛ فإذا حَصلَ، فذلك أدعى، وإذا لم يكنْ، فذلك يدلُّ على عالميَّة اللغة، وأنّها تؤولُ في نهاية المَطاف إلى مُشتركٍ ما بين اللغات.

٥. تبنّى البحث دراسة ظاهرة التأثير والتأثّر في سياق "التَّمَلُّك" لا "الأصالة والتَّقليد" التي انطلقت منها الباحثة، وبذلك توضع نظريّة النّظم التي تأثَّر فيها الجرجانيّ بالفكر الأرسطيّ في سياقها الحقيقيّ، وهو أنّه لم يَخْرج عن المنهج الذي تَناوَلَ "النّظم" على أساسه، وهو مَنْهج إسلاميّ خالص يُؤَكّدُ الأصالةَ، ويُثْبتُ له الإبداعَ والابتكار.

٦. ثمَّ إنّ نَقْط أبي الأسود الذي تأثَّر فيه بِنَقْط السّريان وما نَتَجَ عنه من نَهْضةٍ لغويَّة، يُؤكِّدُ هذا المبدأَ ويُجلّيه، لأنّ هذا النَّهضةَ في نشأتِها خالصةٌ من كلّ شوائب التأثُّر.